الله والإنسان في الشعر الجاهلي

د . عبد الغني زيتوني

لقد عكس الشعر الجاهلي صورة الإنسان العربي في كل منحى من مناحي حياته ومعاشه، وفي كل حالة من حالاته النفسية والشعورية، كما أبان عن مواقفه من قضايا الحياة والوجود. فأضحى بذلك السجلَّ الأمينَ الذي حمل إلينا تفكيره وميولَه ونوازعه. وإذا كانت أغراض الشعر الجاهلي وموضوعاته التي درج عليها الشعراء لم تَدَعْ حيزاً رحباً للتحليق في عالم الألوهية والتأمل في ذات الله وصفاته، فإنها لم تغفل ذلك إغفالاً تاماً، وإنما انطوت على إشارات كثيرة تؤكد أن الإنسان العربي كان مقتنعاً بوجود الله الكبير المتعال اقتناعاً كاملاً، ولم يؤثر في قناعته ما كان من وثنية تشكك في وحدانية الله، وتشرك الأوثان والأصنام معه في العبودية.

● تاريخ الاعتقاد في الله :

قبل البدء في البحث عن الأشعار التي عرضت لاعتقاد الإنسان العربي في الله لابد من معرفة شيء عن تاريخ هذا الاعتقاد؛ ذلك أن المطلع على أخبار العرب الجاهليين يجدهم جميعاً يقرون بوجود الله، ويقرون بأنه الإله الكبير للكون والكائنات. ويبدو أن هذا الاعتقاد كان لديهم منذ أمد بعيد، يؤكد ذلك مؤرخو العرب القدماء، كما يؤكده أيضاً القرآن الكريم؛ فقد ورد أن العرب، منذ أقدم أزمنتهم، كانوا يعتقدون في إله كبير يدير الكون، ويتحكم في الكائنات، وكلما انحرفوا عن الإيمان به، واتخذوا معه آلهة أخرى، ظهر بينهم أنبياء ورسل دعوا إلى نبذ عبادتها والعودة إلى عبادة الله الواحد.

وهذا ما كان عليه قوم عاد بأحقاف اليمن حين اتخذوا الأوثان أرباباً من دون الله، فانبرى هود، عليه السلام، يُسَفِّهُ عبادتهم، ويدعوهم إلى توحيد الله(١). وكذلك كان شأن قبائل ثمود، التي كانت تنزل بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، فقد أرسل إليهم صالح، عليه السلام، ليدعوهم إلى عبادة الله الواحد، وترك ما عداه من الآلهة(٢).

وبمجيء إبراهيم، عليه السلام، إلى الحجاز، وبنائه بيتَ الله الحرام، ونبذه كل ما يشكك في وحدانية الله، تبدأ صفحة جديدة في تاريخ العرب القدماء، الذين دأب قسم من أسلافهم، حتى الإسلام، في الإشادة بإبراهيم الخليل على أنه هو الذي جلا فكرة الإله الواحد(٣).

كذلك يرى فريق من الباحثين في تاريخ العرب والساميين أن معرفة الله قد انحدرت إليهم منذ زمن بعيد، ويؤكدون أن الله عند الجاهليين هو «إيل» الذي كان الإله المشترك للساميين القدماء، كما أنه هو «الله» الذي كشفت عنه النقوش الثمودية والصفوية في شمال الجزيرة العربية(٤). ولعل ما يرجح رأي هؤلاء الباحثين أن لفظ «إيل» لا يزال في العربية يدل على الله؛ فقد ورد أن كل اسم آخره «إيل» فمضاف إلى الله تعالى(٥).

ويبدو من أخبار العرب القدماء أنهم، بعد عهد إبراهيم عليه السلام، عادوا إلى الإشراك مجدداً واتخاذ الأوثان آلهة وأرباباً، وقد انتشرت تلك العبادة بينهم انتشاراً واسعاً، حتى إذا بلغنا العصر الجاهلي وجدنا كثيراً من العرب، وفي الحجاز خاصةً، يتعبدون لأوثان متنوعة، لكنهم، على الرغم من ذلك لم يغفلوا عن الله، بل كانوا يزعمون أنهم يعبدونها لتقربهم إليه زلفى(٦). وكذلك ظلوا متمسكين بشعائر من ديانة إبراهيم التوحيدية كالحج إلى الكعبة بيت الله الحرام، والعمرة، وإهداء البُدْنِ، وغير ذلك(٧).

وقد ظهرت في العرب الجاهليين فئة دعت إلى توحيد الله وتنزيهه عن الإشراك، وأعلنت أنها لا تزال على دين الله إبراهيم الخليل، وأنها تؤمن مثله بإلهٍ متفرد بالعبودية. وهذه الديانة هي الحنيفية، والذين دعوا إليها سموا الحنفاء(٨)، وقد برز منهم شعراء عبروا عن اعتقادهم في أشعارهم، أمثال أمية بن أبي الصلت(٩)، وأبي قيس بن الأسلت(١٠)، وزيد ابن عمرو بن نفيل. ولعل في قول الأخير ما يوضح اعتقاد هذه الفئة في الله الواحد، منزهاً عن الإشراك بأبرز الأصنام التي تَعَبَّدَ لها الجاهليون، وهي اللأت والعزّى وهُبَل(١١):

أرباً واحـــداً أم ألــفَ ربٍّ   أدينُ إذا تقسَّمتِ الأمـــورُ
عزلتُ الــلأت والعُزّى جميعـا   كذلك يفعلُ الجَلْـدُ الصبـورُ
فلا العُـزّى أدينُ ولا ابنتيهـا   ولا صَنَمَيْ بنـي عمرٍو أزورُ
ولا هبـلاً أدينُ وكان ربـاً   لنا في الدّهر إذْ حِلمي صغيرُ

وفضلا عن الوثنية والحنيفية فإن العرب قد عرفوا اليهودية والنصرانية، وكانت النصرانية أكثر انتشاراً بينهم لطابعها التبشيري(١٢)، على حين ظلت اليهودية وتعاليمها مقتصرة على بعض القبائل التي تعيش قرب يثرب(١٣). ومن المعروف أن الديانتين تدعوان إلى عبادة الله رب الكون والكائنات.

● وجــود الله ومقدرتــه :

إذا عدنا إلى الشعر الجاهلي، باحثين عن اعتقاد الإنسان العربي في الله، فإننا نجد معظم الأشعار التي ذكرت الله تدل على أن ثمة إقراراً بوجوده من العرب جميعاً، على مختلف دياناتهم، وتدل على أن رؤيتهم كانت مشتركة لمقدرته الفائقة التي لا تعلوها أية مقدرة، ولا تضاهيها أية قوة.

وما يغلب على الظن أن الاختلاف بين ديانات العرب إنما كان في النظرة إلى ذات الإله(١٤)، أما الاعتقاد في مقدرة الله، وتنوع تلك المقدرة ومداها، فإنه كان، في الغالب الأعم، مشتركا لديهم. ومن هذا المنطلق يمكننا تعليل بعض الأشعار التي أشارت إلى اعتقاد مزدوج في الله سبحانه وتعالى سواء أكان بين النصرانية والوثنية أم في الوثنية نفسها بين الله عز وجل والأوثان. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فمن ذلك ما نجده لدى عدي بن زيد النصراني من قسم بالله رب المسيحية ورب الكعبة الذي يؤمن به الوثنيون المشركون(١٥):

سعى الأعداء لا يألون شراً   عليَّ، وربِّ مكةَ والصليبِ

وكذلك نرى الأعشى الذي كان مشركاً يقسم بالراهب والكعبة. وهذا ما يشير إلى أنه اعتقد أن الله واحدا في كلتا الديانتين الوثنية والنصرانية(١٦):

فإني وثوبَي راهبِ اللُّجِّ والتي   بناها قُصيٌّ والمضاضُ بن جُرْهُم(١٧)
لئن جدَّ أسبابُ العداوةِ بيننا   لترتحلنْ مني على ظهر شَيْهَم(١٨)

ولم تكن الوثنية التي كان يدين بها معظم الجاهليين إلا إشراك الله بالأوثان، واعتقاداً مزدوجاً فيهما، كما تؤكد لنا ذلك بعض الأشعار، ونضرب عليها مثلاً، قول خِداش بن زهير في حلف جرى بينه وبين شخص آخر، كان قد نقض العهد وغدر به(١٩):

وذكَّرتُه بالله بيني وبينه   وما بيننا من مدةٍ لو تذكَّرا
وبالمرْوَةِ البيضاء، يوم تَبَالة   ومَحْبَسَة النعمانِ حيث تنصراً(٢٠)

ونجد النابغة الذبياني أيضاً يقسم بالله الذي يحج له، والذي يحمي طير مكة، كما يقسم في الوقت نفسه بما يراق على النصب أو الأصنام من دماء العتائر المقدسة لآلهة الأوثان(٢١):

فلا لعمرُ الذي قد زرتُهُ حِجَجاً   وما هُريق على الأنصابِ من جَسَدِ
والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ تمسحُها   ركبانُ مكَّةَ بين الغيل والسَّنَد(٢٢)
ما إن أتيتُ بشيءٍ أنت تكرهه   إذاً فلا رفعتْ سوطي إليَّ يدي

ويشير أوس بن حجر إلى ما يعتقده المشركون من أن الله رب الآلهة، وذلك في قوله(٢٣):

وباللأَتِ والعُزَّى ومن دانَ دينَها   وبالله، إنَّ الله منهنَّ أكبرُ

إذاً فالإنسان العربي، على الرغم من تنوع الديانات حوله قد اعتقد في وجود الله تعالى، وظهر هذا الاعتقاد أكثر جلاء ووضوحاً في رؤيته لمقدرة الله الفائقة، وتلك الرؤية عبر عنها في شعره، وبرز معظمها في ذكره لثواب الله وعقابه، وفي تسليمه لمشيئته وإرادته.

● أولا الثواب :

إن من أهم مظاهر مقدرة الله لدى الجاهلي هو ما يمنحه للإنسان من خير، وهو ما يضفي عليه من إحسان، وغالباً ما يكون ذلك ثواباً من الله لفعل حسن أو عمل خير قدمهما للآخرين، ولهذا وجدنا كثيراً من الشعراء في مديحهم خاصة، يتوجهون إلى الله طالبين منه أن يجزى من أحسنوا إليهم خير الجزاء، جاعلاً حياتهم أرغد حياة وأنعمها.

فمن ذلك ما مدح به عروة بن الورد مالك بن حمار الفزاري، سائلاً الله أن يحسن إليه، وأن يدر عليه الخير الوفير والرزق العميم، لما بدا منه من شجاعة وحمية في الدفاع عنه(٢٤):

أبا مالكٍ إنْ ذلك الحيُّ أصْعَـدُوا   جزى الله خيراً، كلَّما ذُكر اسـمُهُ،(٢٥)
لـه رِدَّةٌ فينا إذا القـومُ زُهَّـدُ   وزوِّد خـيراً مالكـاً إنَّ مالكـاً

وكذلك طلب قيس بن الخطيم من الله أن يجزي ممدوحيه خير الجزاء لعطائهم الوفير، وسجاياهم الفاضلة(٢٦):

جزاهـمُ اللهُ عنَّا أينما ذُكـروا   لدى المكارم إذ عُدَّتْ بها النِّعمُ

وكان زهير بن أبي سلمى يرى أن الله يمتحن الإنسان بالخير، ويغدق عليه بالنعم؛ لذلك طلب منه أن يبلو خير البلاء كلاً من هَرِم بن سنان والحارث بن عوف، لِما قاما به من الصلح بين عبس وذبيان في حربهم الطاحنة(٢٧):

رأى اللهُ بالإحسانِ ما فعلا بكم   فأبلاهما خيرَ البلاءِ الذي يبلو

ويبين لنا الشعر في بعض جوانبه أن الإنسان العربي كان يرى أن ثواب الله قد يتمثل في أشكال مختلفة؛ كأن يرفع الله الفرد إلى مكانة عالية ومرتبة رفيعة في الحياة، وهذا ما رآه النابغة في النعمان بن المنذر(٢٨):

ألم تـرَ أنَّ الله أعطـاك سُـورةً   ترى كل مَلْكٍ دونها يتـذبـذبُ
فإنك شمسٌ والملوكُ كواكـب*   إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

وهذا أيضاً ما طلبه مَقَّاس العائذي من الله في ممدوحيه(٢٩):

إذا وضع الهزاهزُ آلَ قـومٍ   فـزاد اللهُ آلكـمُ ارتفـاعـا(٣٠)

وقد يكون الثواب إطالة الله لحياة الإنسان؛ فيمد عمره كي يبقى خيره دائماً وعطاؤه مستمراً، كما رغب في ذلك النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر حين سمع بمرضه(٣١):

ونحن لديه نسـأل الله خُلْـدَهُ   يَرُدُّ لنا مَلكاً وللأرضِ عامـرا

وقد يبدو ثواب الإنسان، في رأي الشاعر، متمثلاً في دفاعه عن الناس وحمايتهم؛ ولهذا اعتمد أوس بن حجر على رعاية الله وحفظه له مما قد يصادفه من أذى خصومه وأعدائه(٣٢):

فإنْ يهوَ أقوامٌ رَدَاىَ فإنما   يقيني الإلهُ ما وقى وأصادفُ

وكذلك اعتقد ذو الإصبع العدواني أن ثوابه عند الله، لصبره على أعدائه، هو أن يحميه ويمنعه من كل من يريد به شرا(٣٣):

ولا ترى فيَّ غير الصبر مَنْقَصَةً   ومـا سـواه فإن الله يكفيني

ويأخذ ثواب الله لدى بعض الشعراء شكلا آخر، يُجلَّى في الرزق الذي يغدق به على من يستحقه من الناس، وهذا ما وجده النابغة الذبياني جديراً بالنعمان، لذلك طلب من الله أن يرسل إليه غيثاً عميماً ليتبعه رزق وفير(٢٤):

أَلِكْني إلى النعمانِ حيث لقيتَهُ   فأهدى له الله الغيوثَ البواكرا

وقد وجد الأعشى أنَّ خير ثواب أنعم الله به هو أنْ جعل طعامهم في إبلهم دائماً مستمرا(٢٥):

جعل الإلـهُ طعامَنا في مالِنا   رزقاً تضَمَّنَهُ لنا لـن ينفـدا

ومن ذلك نجد أن العربي اعتقد أن الله تعالى يتصف بمقدرة قوية، قادرة على إسباغ أنواع الخير على الإنسان؛ من إعلاء للمكانة، ومد في العمر، ووقاية وحماية، ورزق وفير، وعطاء دائم.

● ثانياً ، العقاب :

لا تقتصر مقدرة الله في رأي الإنسان العربي على الثواب والإحسان فقط وإنما تشمل أيضاً العقاب والإساءة، وإذا كان الله في تصور الجاهليين يجزي الناس بالخير فإنه يجزيهم بالشر كذلك، فيعاقب المسيئين، ويخزي الأشقياء، ويصيبهم بأنواع شتى من العقوبات، وقد يصل الأمر إلى إهلاكهم وإفنائهم.

ومن ثم وجدنا الشعراء كثيراً ما يصبون جام غضبهم على أعدائهم وخصومهم، مستعينين بقدرة الله على مجازاتهم بشر أعمالهم. فمن ذلك أن الحصين بن الحُمام طلب من الله أن يعاقب قبيلة بأحيائها جميعاً جزاء آثامها وعقوقها(٢٦):

جزى الله أفناءَ العشيرة كلّها   بدارة موضوعٍ عقوقاً ومأثما

وقريب من هذا ما رغب النابغة في أن يكون جزاء بني عبس من الله كجزاء الكلاب، التي لا يلقي أحد لها بالاً، وإن ملأت الفضاء عُواء ونُباحا، وذلك حين هجا بني عبس وعيّرهم اغترابهم في بني عامر(٢٧):

جزى الله عبساً في المواطن كلّهـا   جزاءَ الكلابِ العاويات، وقد فَعَلْ
فأصبحتـم، والله يفعـل ذلكـم،   يَعُزُّكُـمُ مولى مواليكـم حَجَـلْ

وإذا كان الفرد يعتقد أن ثواب الله يتخذ أشكالاً عدة من الإحسان إلى الناس فإنه اعتقد أيضا أن عقاب الله يتخذ أشكالاً مختلفة من الإساءة إليهم، وقد أبرز الشعر ذلك الاعتقاد وصوره في هجاء الشعراء لخصومهم خاصةً.

فقد يكون العقاب متمثلاً في جدع الآذان، فيلقي أصحابها من جراء ذلك ذُلاً كبيراً ومهانة شديدة، على نحو ما رآه طرفة بن العبد لائقاً بأعدائه البكريين(٣٨):

أبْلغْ سراةَ بني بكـر مُغَلْغَلَةً   فجَدَّعَ الله من آذانها اليُمُنـا

ولا يكتفي امرؤ القيس من الله بقطع أنوف أعدائه، وإنما يريد منه أيضاً أن يشوه وجوههم ويمرغهم بالأوحال، كيلا تقوم لهم قائمة(٣٩):

ألا قَبَّحَ اللهُ البراجـمَ كلَّهـا   وجدعَ يربوعاً وعفَّر دارمـا(٤٠)

وقد يتخذ عقاب الله أحياناً صورة مفزعة، تجعل الإنسان شبيهاً بالحيوان المتوحش، كَأنْ يجعل للأعداء أظفاراً طويلة ثابتة، لا يستطيعون قلعها أو تشذيبها. وهذا ما طلبه عُميرة بن جُعَلٍ لبني تغلب حين هجاهم(٤١):

كسا اللهُ حَـيَّيْ تغلَبُ بنة وائـلٍ   من اللومِ أظفاراً بطيئاً نُصولُها

ولعل تلك الأشكال السابقة من عقاب الله كانت تقصد المعنى المجازي لها، وهو إذلال الخصوم وإهانتهم، بَيْدَ أن الشاعر انطلق في رسمها من التصور الحسي لها، ذلك التصور الذي يستند إلى اعتقاده في أن الله قادر على جعلها حقيقة واقعة.

وفضلاً عن ذلك يحذر الشاعر الآخرين من عقاب الله، من غير أن يذكر صورة محددة له، وهذا ما يجعله أوقع أثراً في نفوسهم، وكان عنترة بن شداد قد حذر أحدهم عقاباً من هذا القبيل، في حالة إنكاره وجحده الإحسان(٤٢):

ولا تكفرِ النُّعمى وأثْنِ بفضلها   ولا تَأْمَنَنْ ما يُحْدِثُ الله في غَدِ

وقد نحا أوس بن حجر نحوا مماثلا في هجائه لبني الحارث الذين سرقوا سوامه، واقتسموها فيما بينهم، وراحوا يقدمون لها أرْدأ العلف وأخبثه، مدة عام كامل، فقال فيهم(٤٣):

ولو كان حولي من تميمٍ عصابةٌ   لما كان مـالي فيكـم متقسَّـما
ألا تتقـون الله إذ تعلفونهـا   رضيخَ النـَّوى والعَضَّ حـولاً مُجَرَّمـا

وإذا كانت مقدرة الله كذلك فليس أهون من أن يهلك الأعداء، ويبيدهم، ولا يدع لهم أثراً باقياً، فيكون ذلك عقاباً ما بعده من عقاب. وهذا ما تحقق للأعشى في خصومه، إذ يقول فيما حل بهم وبمنازلهم(٤٤):

وعلمـــتُ أنَّ الله عَمْـــ   ـــداً حَسَّها وأرى بهـــا(٤٥)

لقد أوضح لنا الشعر السابق أن كثيراً من الأفراد اعتقدوا في قوة الله وقدرته على عقاب الناس عقاباً متنوعاً، يحمل الضر إليهم، وقد يهلكهم ويفنيهم فناء تاماً، وقد وجدنا الشعراء اتخذوا من هذا الاعتقاد مادة في هجائهم لأعدائهم والنَّيْلِ من خصومهم.

● ثالثاً، المشيئة :

ترينا أشعار كثيرة أن مقدرة الله، لدى الإنسان، تأخذ حيزها الكبير ومداها الواسع فيما يعزو إليه من سيطرة على الناس والتحكم فيهم، إذ يبدو الله، لدى قسم كبير من الشعراء، ذا سلطة عامة شاملة، يخضع لها الكون، ويسير وفقها البشر، منقادين لإرادة الله ومشيئته.

فمن ذلك ما اعتقده ذو الإصبع العدواني من أن الله جل وعز يملك زمام الدنيا كلها بيده، ويتصرف بها كيفما شاء، حين يقول معاتباً ابن عم له(٤٦):

إن الذي يقبض الدنيا ويبسطها   إن كان أغناك عني سوف يغنيني

وإذا كانت الدنيا كلها في قبضة الله فليس صعباً عليه أن يُقَيِّد الجبالَ بحبالٍ، ويأتي بها خاضعة للنعمان بن المنذر، كي يعلن أهلها طاعتهم له، وانقيادهم لحكمه، بحسب ما رآه المثقب العبدي(٤٧):

ولو علـم الله الجبالَ عَصَيْنَـهُ   لجاء بأمراس الجبالِ يقودُهـا

وعلى هذا فإن الكون كله لله، وما البلاد التي يعيش فيها الناس كادحين من أجل حياة مرفهة إلا بلاد الله، وهذا ما نلمحه في قول عروة بن الورد وهو لا يختلف عن المعتقد الإسلامي(٤٨):

وما طالبُ الحاجاتِ في كل وجهةٍ   من الناس إلا من اكجَدَّ وَشَمَّرا
فَسِرْ في بلادِ الله والتمسِ الغنى   تَعِشْ ذا يَسارٍ أو تموتَ فَتُعْذَرا

وإرادة الله وقدرته لا تتحكمان في الكون فقط وإنما تتحكمان أيضاً في أفعال الناس؛ إذ

اعتقد كثير من الأفراد أنهم خاضعون لإرادة الله التي تسير حياتهم وأفعالهم، مما قد يذكرنا بقضية الجبر التي أخذت حيزاً من الجدل والنقاش في المذاهب الإسلامية، بيد أننا لا نجد لدى الشعراء الجاهليين، في هذا المجال، ذلك المنطق في الحجج والبراهين، وكل ما نجده لديهم هو تسليم منهم بأن مشيئة الله هي التي توجه أفعال الناس، تبعاً لما يتصف به من مقدرة عامة شاملة.

ولعل هذا الأمر نفسه هو الذي دفع بعضَ المشركين إلى شيء من الجدل في احتجاجهم لعبادة الأوثان وإشراكهم بالله، إذ أعلنوا أن مشيئة الله هي التي اقتضت منهم الإشراك، كما نتبين ذلك جلياً في قوله تعالى: {سيقولُ الذين أشركوا لو شاءَ الله ما أشركنا ولا آباؤنا ...}(٤٩).

ونستشف اعتقاداً مماثلاً لدى أبي قيس بن الأسلت حين رأى أن إرادة الله هي التي قدرت أن يعتنق الحنيفية وحدها من دون اليهودية أو النصرانية، وذلك فيما روي له من شعر(٥٠):

أرَبَّ الناس أشياءُ ألمَّتْ　　　يُلَـفُّ الصعبُ منها بالذلـــولِ
أربَّ النـاس أمّا إذ ضَلِلْنـــا　　　فَيَسِّرْنا لمعــروف الســـبيلِ
فلــولا رَبُنـا كنّـا يهـــوداً　　　وما دينُ اليهودِ بذي شُكولِ(٥١)
ولــولا ربُنـا كنّـا نصـــارى　　　مَعَ الرُّهبـان في جبـلِ الجليــلِ
ولكنّـا خُلقنـا اذْ خُلِقنــــا　　　حنيفـــاً دينُنـا عن كلِّ جيــلِ

وانطلاقا من هذا الاعتقاد في مشيئة الله نجد عدداً من الشعراء يؤكدون أن قوة الله العظيمة هي التي تتحكم فيهم، وتسيّرهم حسب إرادتها، حتى إنها لتجعلهم أحياناً يقومون بأعمال لا يريدون القيام بها.

يظهر لنا ذلك جلياً لدى عامر بن الطفيل الذي رأى أن مشيئة الله هي التي جعلتهم يغيرون على قبيلة همدان، على الرغم من أنهم كانوا ينوون الإغارة على قبيلتي نَهْدٍ وجرمٍ(٥٢):

سِرْنا نريدُ بني نَهْدٍ وإخوتهم　　　جَرْمـاً، ولكن أراد الله هَمْدَانا

كذلك يعتقد عامر بن الطفيل نفسه أن أفعال الإنسان لا تسير وفق رغبته، وإنما قدرها الله عليه من قبل؛ فقد يجد في أمر مكروه ما يحببه فيه، وقد يجد في أمر محبوب لديه ما ينفره ويبعده عنه(٥٣):

قضى الله في بعض المكارهِ للفتى　　برشدٍ، وفي بعضِ الهوى ما يحاذرُ

وهذا التسليم لمشيئة الله يظهر أيضاً عند قيس بن الخطيم الذي أيقن أن الإنسان لا حولَ له تُجاه إرادة الله؛ إذ قد يرغب في تحقيق آماله وأمانيه بيد أنها قد تتعارض وما كتبه الله عليه(٥٤):

يحبُّ المرءُ أن يلقى مُناهُ　　ويأبى اللهُ إلا ما يشاءُ

وكان طرفة بن العبد يعتقد أن إرادة الله هي التي جعلته قليل المال، لا عون له يساعده ولا نصير لديه يتكل عليه، ولو شاءت لجعلته غنياً من الأغنياء أو شريفاً من الشرفاء(٥٥):

فلو شاء ربِّي كنتُ قيسَ بنَ خالدٍ　　ولو شاء ربِّي كنتُ عمرُو بنَ مَرْثَدِ
فألفيتُ ذا مالٍ كثيرٍ وعادني　　بنونَ كرامٌ سادةٌ لمسوَّدِ

ويوضح لنا الشعر في بعض جوانبه أن مشيئة الله تتحكم في أفعال مختلفة متعددة؛ كأن يذكر الشاعر أنها هي التي جعلتهم ينتصرون في غزوهم، ويعودون فائزين غانمين، على حين جعلت أعداءهم فقراء أذلاء.

وهذا ما رآه سلامة بن جندل في شعره، واصفاً ما جلبته قوة خيلهم من غنائم(٥٦):

كم من فقيرٍ، بإذن الله، قد جَبَرَتْ　　وذي غنى بَوَّأتْهُ دارَ محروبِ

وكذلك كان عامر بن الطفيل يعتقد أن الله هو الذي يتحكم في الدهر، في حالتي السعادة والشقاء، لهذا يخاطب أحد أعدائه(٥٧):

إنْ يُمكنِ اللهُ من دهرٍ تُساء به　　نتركْكَ وحدكَ تدعو رَهْطَ بِسطامِ(٥٨)

وبلغ التسليم بمشيئة الله وإرادته لدى الأعشى مبلغا دفعه إلى الاعتقاد في أن الناس قد خلقوا مجبولين على الفساد، أما هدايتهم وصلاحهم فمرهونان بإرادة الله وقضائه(٥٩):

إنما نحن كشيءٍ فاسدٍ　　فإذا أصلحه اللهُ صَلَحْ

ولعل للأوضاع السياسية والاجتماعية والمناخية، التي كان يعيش فيها الإنسان العربي، أثراً مهماً في تسليمه بإرادة الله ومشيئته، وفي ترسيخ اعتقاده أن كل شيء في هذه الدنيا مقدر، ولكنْ لا رادَّ لما كتب في السماء(٦٠). كذلك كانت تعاليم الديانات حوله تساعده على ذلك الاعتقاد، وخاصة أنها كانت جميعاً تقر بوجود الله، وترفع من شأن مقدرته.

ويمكننا التنبيه في هذا الأمر أيضاً على الحياة المضطربة التي كانت تحيط بالإنسان العربي؛ تلك الحياة الممتلئة بالأحداث الخطيرة؛ بما يجعل المرء معرضاً في كل حين للموت؛ سواء أكان قتلاً أم جوعاً، فأغلب ظننا أن لهذه الحياة غير الآمنة شأناً آخر في دفع الإنسان الجاهلي إلى التسليم بأن مقدرة الله هي التي تتحكم في أفعاله، وهي التي تُسَيِّر حياته الحافلة بالمفاجآت..

وهكذا نجد الشعر قد عبر تعبيراً واضحاً عن انقياد الأفراد لمشيئة الله وإرادته، وقد برز ذلك لدى الشعراء في نظراتهم إلى سيطرة الله على الكون وقدرته على توجيه أفعال الإنسان فضلاً عما رأيناه لديهم من اعتقاد في ثواب الله وعقابه، بما يؤكد اطمئنان الإنسان العربي إلى وجود إله كبير فطر الكون والكائنات، وعدم انسياقه وراء متاهات البحث عن علة الوجود وعن آلهة أخرى تسيره وفق أهوائها ورغباتها، شأن كثير من الأفراد لدى الأمم القديمة وشعوبها كالإغريق والرومان، على سبيل المثال.

● الحواشي والتعليقات ●

(١) تاريخ الطبري: ١/٢١٦، وانظر الأعراف: الآيات ٦٥ حتى ٧٢، وتفسير ابن كثير: ٢/٢٢٤.

(٢) تاريخ الطبري: ١/٢٢٦، وانظر الأعراف: الآيات ٧٣ حتى ٧٩، وتفسير ابن كثير: ٢/٢٢٧.

(٣) تاريخ الطبري: ١/٢٥٩، وانظر البقرة: الآية ١٢٧، الآيتين ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) التاريخ العربي القديم: ص ٢١١ ـ ٢١٢. وأبرز هؤلاء الباحثين «نيلسن» و«رينيه ديسو».

(٥) القاموس المحيط: مادة (إل).

(٦) الزمر: الآية ٢٣، وتفسير ابن كثير: ٤/٤٥، وانظر تاريخ اليعقوبي: ١/٢٩٥.

(٧) السيرة النبوية: ١/٧٧، والأصنام: ص ٦، وأخبار مكة: ١/٦٧.

(٨) لسان العرب، وتاج العروس: مادة (حنف).

(٩) الديوان: ص ٥١٦، وص٥١٨، وص٥٣٨. وانظر المقدمة للمحقق ففيها دراسة مسهبة عن حياة أمية واعتقاده.

(١٠) السيرة النبوية: ١/٢٨٤، و ١/٤٣٨.

(١١) المصدر نفسه: ١/٢٢٧. ووردت الأبيات، مع اختلاف في الرواية والترتيب في جمهرة نسب قريش: ص ٤١٦، والأغاني: ٣/١٢٥.

(١٢) تاريخ اليعقوبي: ١/٢٩٨، وانظر عن النصرانية في هذا المجال «المفصل في تاريخ العرب»: ٦/٥٩٠.

(١٣) تاريخ اليعقوبي: ١/٢٩٨، والمفصل في تاريخ العرب: ٦/٥١٧. ويرى غوستاف لوبون أن

عدم انتشار اليهودية يعود إلى أن اليهود كانوا يعدون الله إلهاً قومياً خاصاً بإسرائيل وقبائلها. انظر اليهود في تاريخ الحضارات الأولى: ص ٦٩ .

(١٤) إذا كان الحنفاء قد وحدوا الله فإن معظم المشركين قد اعتقدوا أن له بنات من الأصنام، انظر الأصنام: ص ١٩ . وكان قسم من اليهود يزعمون أن له ابناً هو عُزَيْرٌ، كما زعم فريق من النصارى أن المسيح ابن الله، على نحو ما روى ذلك القرآن الكريم، التوبة: الآية ٣ ، وتفسير ابن كثير: ٣٤٨/٢ . وانظر الاختلاف في طبيعة السيد المسيح عند الجاهليين. المفصل في تاريخ العرب: ٦٢٦/٦ وما بعدها .

(١٥) الديوان : ص ٣٨ .

(١٦) الديوان: ص ١٢٥ ، وانظر له قسماً كاملاً، ص ١٧٧ .

(١٧) اللج: غدير عند دير هند بنت النعمان، واراد به الدير نفسه .

(١٨) الشيهم : القنفذ .

(١٩) الأصنام : ص ٣٥ .

(٢٠) المروة البيضاء : أراد بها صنم ذي الخلصة، وكان على شكل صخرة بيضاء بتبالة بين مكة واليمن. ومحبسة النعمان: المكان الذي تنصر فيه النعمان بن المنذر.

(٢١) شرح القصائد العشر : ص ٤٦١ .

(٢٢) أراد بالمؤمن: الله تعالى، يؤمن بالطير بتحريم صيدها، والغيل والسند: موضعان بمكة.

(٢٣) الديوان: ص ٣٦ .

(٢٤) ص ٤٩ .

(٢٥) أصعدوا : ارتفعوا في البلاد .

(٢٦) الديوان : ص ١٠٩ .

(٢٧) الديوان : ص .

(٢٨) الديوان : ص ٧٣ ـ ٧٤ .

(٢٩) المفضليات : ص ٦٠٨ .

(٣٠) الهزاهز: جمع الهَزْهَزَة، وهي تحريك البلايا والحروب للناس. والآل: الشخص، وأراد به المكانة.

(٣١) الديوان : ص ٦٨ .

(٣٢) الديوان : ص ١١٢ .

(٣٣) الديوان : ص ٩١ .

(٣٤) الديوان : ص ٧١ .

(٣٥) الديوان : ص ٢٣١ .

(٣٦) المفضليات : ص ١٠٠ .

(٣٧) الديوان : ص ١٩١ .

(٣٨) الديوان : ص ١٩٨ .

(٣٩) الديوان : ص ١٣٠ .

(٤٠) البراجم ويربوع ودارم : قبائل من تميم.

(٤١) المفضليات : ص ٥١٨ .

(٤٢) الديوان ، ص ٨٨٢ .
(٤٣) الديوان ، ص ١٢٢ .
(٤٤) الديوان ، ص ٢٥٧ .
(٤٥) حَسَّها ، استأصلها ، وأرى بها ، أي جعل الناس يرون بها ذلك .
(٤٦) الديوان ، ص ٩١ .
(٤٧) المفضليات ، ص ٣٠٧ .
(٤٨) الديوان ، ص ٨٩ .
(٤٩) الأنعام ، الآية ١٤٨ ، وانظر تفسير ابن كثير ، ٢/١٨٦ .
(٥٠) السيرة النبوية ، ١/٤٣٨ ، والروض الأنف ، ٤/٧٨ .
(٥١) الشكول ، جمع الشَّكْل ، وشَكْلُ الشيء ، مثله .
(٥٢) الديوان ، ص ١٣٨ .
(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .
(٥٤) الديوان ، ص ٩٨ .
(٥٥) شرح القصائد العشر ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .
(٥٦) الديوان ، ص ١٠٩ .
(٥٧) الديوان ، ص ١٣٣ .
(٥٨) بسطام ، هو بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني ، أحد فرسان العرب المشهورين في الجاهلية .
(٥٩) الديوان ، ص ٢٣٧ .
(٦٠) المفصل في تاريخ العرب ، ٦/١٢٢ .

● المصادر والمراجع ●

- القرآن الكريم .
- أخبار مكة ، للأزرقي عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠هـ) ط الماجدية ، مكة المكرمة ١٣٥٢هـ .
- الأصنام ، لابن الكلبي هشام بن محمد (ت ٢٠٦هـ) تح أحمد زكي باشا ط دار الكتب المصرية ١٩٢٤ .
- الأغاني ، لأبي الفرج الأصبهاني علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) ط دار الكتب المصرية ١٩٢٧ .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، للمرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) ط مكتبة الحياة ، بيروت .
- تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .
- التاريخ العربي القديم ، ديتلف نيلسن وآخرون ، ترجمة فؤاد حسنين علي وزكي محمد حسن ، ط مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٥٨ .
- تاريخ اليعقوبي ، لأحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـ) ط دار العراق ، بيروت ١٩٥٥م .

- تفسير ابن كثير، تفسير القرآن العظيم : لإسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) ط البابي الحلبي، مصر.
- . جمهرة نسب قريش وأخبارها : للزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ)، تح محمود محمد شاكر، ط بيروت ١٣٨١هـ.
- ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس: تح محمد محمد حسين، ط المطبعة النموذجية، القاهرة ١٩٦٠.
- ديوان امرىء القيس : تح د. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف بمصر ١٩٦٤.
- ديوان أمية بن أبي الصلت : د. عبد الحفيظ السطلي، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧٧.
- ديوان أوس بن حجر : تح محمد يوسف نجم، ط دار صادر، بيروت ١٩٦٠.
- ديوان ذي الإصبع العدواني: تح محمد علي العدواني ومحمد نايف الدليمي الموصل ١٩٧٣.
- ديوان زهير بن أبي سلمى: شرح ثعلب أحمد بن يحيى (ت ٢٩١هـ) ط الدار القومية، القاهرة ١٩٦٤.
- ديوان سلامة بن جندل : تح د. فخر الدين قباوة، ط المكتبة العربية، حلب ١٩٦٨.
- ديوان طرفة بن العبد : تح علي الجندي، ط مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨.
- ديوان عامر بن الطفيل : رواية محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ) ط دار صادر ودار بيروت ١٩٦٣.
- ديوان عدي بن زيد العبادي : تح محمد جبار المعيبد، ط دار الجمهورية، بغداد ١٩٦٥.
- ديوان عروة بن الورد: شرح ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) تح د. عبد المعين الملوحي، دمشق ١٩٦٦.
- ديوان عنترة بن شداد : تح محمد سعيد المولوي، ط المكتب الإسلامي، القاهرة ١٩٧٠م.
- ديوان قيس بن الخطيم : تح د. ناصر الدين الأسد، ط دار العروبة، القاهرة ١٩٦٢.
- ديوان النابغة الذبياني : تح د. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط (٢) دار المعارف بمصر ١٩٨٥.
- الروض الأنف : للسهيلي عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٥٨١هـ) تح عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٧.
- السيرة النبوية : لابن هشام عبد الملك (ت ٢١٨هـ) تح السقا والأبياري وشلبي، البابي الحلبي، مصر ١٩٥٥.
- شرح القصائد العشر : للتبريزي يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ) تح د. فخر الدين قباوة، دار الأصمعي، حلب ١٩٧٣م.
- القاموس المحيط : للفيروزآبادي (ت ٨١٦هـ) البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٢.
- لسان العرب : لمحمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ) المطبعة الأميرية، بولاق ١٣٠٠هـ.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، ط دار العلم، بيروت ومكتبة النهضة، بغداد ١٩٧٦.
- المفضليات: للمفضل الضبي (ت ١٧٨هـ) شرح الأنباري (ت ٣٠٤هـ) مطبعة اليسوعيين، بيروت ١٩٢٠.
- اليهود في تاريخ الحضارات الأولى : غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ط البابي الحلبي، مصر ١٩٧٠.